

في الأدب المقارن

الطائر والحيوان

في الأدبين العربي والإنجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

وحدة الأحياء واشتراكهم في صفات ترفعهم جميعاً عن الجماد وتميزهم بالشعور بالغبطة والالام . كل هاتيك حقائق من الموضوع بحيث انتهى إليها الأولون قبل أن يحققها العلم الحديث ويفصل دقائقتها وخرافاتها ؛ وتنازع الأحياء البقاء ، وعدوان أنوارها على أضعفها وفوز القوى بالغلب والبقاء ، هذه كذلك أمور واضحة رأى المتقدمون مظاهرها وظهرت لمحاتها في آدابهم ؛ وقد كان موقف الإنسان منذ عصوره البدائية من الحيوان غريباً لا يخلو من تناقض وطرافة : كان في أول أمره يتنازع السباع البقاء ويفترسها ليتغذى بها ، ثم استأنس بعضها وسخره في أعماله تسخير العبيد ، واتخذ بعضها للزينة والمسرة ثم عاد فقدس بعض عبيده أولئك ورفعه إلى مصاف الآلهة ، لأنهم يدبرون على حياته خيراً وبركة ، بينما ظل يتلهى باقتصاص أرباب الوحش . ويجرب بأسه وفروسيته بأصنام حشاشاتها ، والتفريق بين الأمهات منها وبين الصغار .

واخترع خيال الإنسان في تلك العهود البعيدة عجائب الحيوان وغرائب الأطياف ومخيف الكائنات ، كما توهم البابليون وحشاً هائلاً يقذف الماء من فيه فيغمر السهل والجبل ، وكان تجل الغريق الجياد الطائرة والسباع ذوات الرؤوس المتعددة وخلات شعور رؤسها أفاع باغية ، وتوهموا الأبطال المغامرين منطلقين لقتال تلك السباع والافاعي ، وكان تصور العرب الغول والعنقاء ، وزعم السندباد أنه سافر على جناح طائر ميمون يدعى الرخ ، وكان توهم أوائل الإنجليز سبباً صارياً قد ألقي الرعب في ملكة بأسرها ، حتى صارعه فصرعه الأمير يولف في الملاحمة المسماة باسمه ؛ ولم تكن كل هذه السباع الوهمية التي هذى بذكرها الإنسان في عهوده الأولى ، إلا صدى لذكريات الوحوش الهائلة التي كانت تقطن البر والبحر في قابر الأزمان ، وكان الإنسان المتوحش على فرع منها وحذر دائبين

فلما بلغ الإنسان طوراً من الحضارة أرقى ، أنزل تلك العجاوات التي كان أهلها من محاربي عبادته ، وتبدت تلك الخرافات وما بها من سباع وهمية ، وعلم العرب أن الغول والعنقاء مستحلان استحالة الخلق

الرفي ، وظهر من المثقفين ذوى النفوس الرقيقة من انتهوا ونهوا عن قتل الحيوان والتغذى بلحمه والتلهي بصيده وتغذيته وسجنه كأي العلاء الحكيم العربي ، وكان تصور الإبطالي ليوناردو دافنشي ، الذي كان يتنازع الطيور الحبيسة ليطلقها ويشفي نفسه المتألمة برؤيتها تضرب أجنحتها ذاهبة إلى الفضاء ؛ وظهرت آثار تلك العلاقات المختلفة بين الإنسان والحيوان في الآداب : ففي الأدب الإغريقي وصف للمغامرات حلة الارغونوت التي خرجت لاستخلاص فرأى ثمين يحمله غول فظيع ، وفيه وصف لجماعة السيكلوب أو المردة ذوى العيون المفردة ، وما كان بين كبيرهم وبين يوليسيز من كفاح ، وفي الأدب الفرنسي قطعتان بديعتان تقيضان رحة وجمالاً ، تصور إحداهما مصرع غزال والأخرى مصرع ذئب على أيدي الصيادين

والأدب العربي حافل بذكر أنواع الطير والحيوان التي عرفها العرب في باديتهم ، كالجلج والحسان والأسد والقطاة والحمامة ، وكان من عاداتهم أن يمنحوا بعضاً منها كنيات : فأبوقيس للقرود وأبو خالد للأسد ، وكان لبعضهم أسماء في لغتهم عديدة ، وبها ضربوا الأمثال قالوا : أهدى من قطاة وأحذر من غراب . وأعدى من ظليم ، وسيروا الكنى فقالوا : جان الكلب ومهذول الفصيل للجواد المضياف ، واستعاروا أوصافها للإنسان فقالوا : جيد كجيد الغزال وعيون كعيون الجأذر وشبهوا خوذات المقاتلين ببيض النعام ، وتشابهوا بأصوات بعض الحيوانات كالغراب والبومة ، وزجروا الطير يتفاهلون بالسارح منها ويتشابهون بالبارح ، وأجروا الأمثال على استنباط قصة الثيران الثلاثة المنسوبة إلى الإمام علي ، وكالقصص التي أنطق فيها الحيوان ابن المقفع ، والمحاورات التي تحملها إباحا إخوان الصفا ، واسترعت أحوال الحيوان ومساعته انتباههم فتدبروها ملياً كما في تلك الرسالة البليغة عن النمل المنسوبة إلى الإمام علي أيضاً ، وفي التدبر في أحوال كثير من الطير والحيوان والمواهم أفاض القرآن الكريم في شتى المواضع ، ودعا الإنسان إلى التفكير فيها ، وألف الجاحظ كتابه المعروف جامعاً بين العلم والآداب

وقد أطنب أدباء العربية خاصة في ذكر الإبل ووصفها في أشعارهم ، ووصف سيرها وحنينها إلى أعطانها واستحثائها ومناجاتها ، ولا غرو فقد كانت قوام حياة العربي في حله وترحاله ، بل كان لها أثر جليل في تطور الشعر العربي ذاته ، إذا صح ما قيل من أن أوزان الشعر اشتقت من مشياتها وتدفعها ، وهو قول وجيه ؛ وقيل شأن الإبل قليلاً حين تحضر العرب ، ولكن ظلت لها أهمية عظيمة ، وظلت من أهم وسائل الانتقال وحمل المتاجر براً ، وحافظ أدباء العربية على تقاليد الجاهليين من الإطناب في ذكر الإبل وتقديمه بين أيدي المديح

حتى استقلت الابل بجانب عظيم من الشعر العربي ، ومن خير أوصافها قول طرفة في معلقته :

وإني لأفنى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغدى
تبارى عناقاً ناجيات وأبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد
وأظن أدياء العربية أيضاً في ذكر الخيل ووصفها في أشعار
الحاسة ، وما ذاك إلا لأنهم في جاهليتهم وإسلامهم كانوا أمة جلال
وكفاح ، الخيل أول عدتهم في القتال والذود عن حقيقتهم ، فكان
أعز مكان في الدنيا لديهم ظهر ساج كما قال المتنبي ، وطالت صحبتهم
الخيول وأطردت ملازمة الخيل لهم ، فكانت ملازمة قوامهم كما قال
المتنبي أيضاً ، وكانوا ولدوا على صهواتها ، ووصفوا مواقفهم في
الحروب ومواقف جياهم ، كما فعل عترة في معلقته ، حيث يذكر
كيف ازور حصانه من وقع القنابل بانه ، وكيف شكاً إليه آلامه بعبدة
وتحمم ، وصار لكلمة الخيل أو كلمتي الخيل والرجل مغزى خاص
بالحرب ، بعد أن استعملها القرآن الكريم في تلك الآية البليغة :
« وأعدوا لهم ما استطعتم من عدة ومن يباط الخيل » ، وتألق أبو تمام
والمتنبي في وصف الخيل وسماتها وأخلاقها وزخرفها ، ومن بديع
أوصافها في العربية قول الفرزدق في جواد أغر محجل :

فكانت لطم الصباح جبينه فاقص منه نخاض في أجشائه
وأيات أبي تمام التي يقول منها :

وأولق تحت العجاج وإنما من صحة إفراط ذاك الأولي
وقول أبي الطيب في وصفه للمعركة التي دارت على ربي حصن الحدث :

إذا زلقت مشيتها ببطونها كما تتعشى في الصعيد الأراقم
وقاز الأسد والذئب باهتمام أدياء العربية ، وتركوا في الشعر العربي
أوصافاً شائعة وقصصاً ممتعة ، من ذلك وصف بعض المقاتلة أمام
أمير المؤمنين عثمان بن عفان طلوع أحد الليث عليهم في جلجلة
وروية زلزلت الأرض وخلعت قلوب الفرسان وجياهم ؛ ومنه أيضاً
وصف الفرزدق للأطلس العسال الذي رأى ناره موهناً فأناه ، فقامه
عشاه ، حتى امتلا الذئب فتكسر ضاحكاً ، ولكن الفرزدق حين
رأى نيوب الذئب بارزة لم يقل أن الذئب يتسم ، بل جعل قائم سيفه
في يده بمكان ، وتاه على الذئب بما آناه له من قرى بدل أن يرشقه بشبابة
سنان ؛ أما البحترى فلم يكن بهذا المكان من الجود ، بل كان يحدث
نفسه بصاحبه الذئب ، كما كان الذئب يحدث نفسه بصاحبه البحترى ،
فرمى الإنسان الوحش فأصماه ، ونال من لحمه قليلاً ؛ كذلك يصف
المتنبي في أبيات من غرر الشعر العربي ملاقة بعض بمدحجه للأسد ،
وتغفيره إياه بالسوط ؛ وهناك كذلك وصف البديع في بعض مقاماته
لمثل هذا اللقاء الرائع بين فارس مقدام وبين ملك الحيوان ، ومنه
قوله على لسان الفارس :

وقلت له : يعز على أني قتلت مناسي جلدا وقسرا
ولكن رمت شيئاً لم يرهم سواك ، فلم أطلق باليئ صبرا
تحاول أن تعلني فرارا ، لعمر أليك قد حاولت نكرا
ولما تحضر العرب وانتشر في عليهم الترف ، تألقوا في اتخاذ
الحيوان للزينة والمتعة ، وكان الخروج للقصص من وسائل لهُومهم وترويحهم
عن النفس ، وكثر في الشعر وصف تلك الأفيال التي كان الخلفاء
الفاطميون يسبونها في مواكبهم ، والمها التي كانوا وكان غيرهم يزينون
بها حظائرهم وقصورهم ، ووصف الخروج للقصص وكلاب الصيد ،
وقد وصف أبو نواس في أبيات مشهورة كاساً له قد صورت عليها
مها تدرجها بالقسي الفرارس ، ووصف المتنبي لبؤة مقتولة وأشباهها
حولها جائمة ، وكان قد هيء ذلك المنظر في حفل استقبال فيه سيف
الدولة سفراء قصر ، ولابن الرومي عينة بارعة في وصف يوم طرد
تمتع به في رفقة له ، ومن نوادر أبي دلالة أنه خرج مع الخليفة المهدي
وعلى بن سليمان للصيد ، فأخطأ على الرمية وأصاب أحد كلاب الصيد
فقال أبو دلالة :

قد رمى المهدي ظيئاً شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليمان ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لها : كل امرئ يأكل زاده

وكان من عادة أدياء العربية أن يمثلوا لأحوالهم بأحوال الحيوان ،
ويستعبروا صفاته لمسام بسيل وصفه ، فيمثلون لحنينهم بحنين الابل
إلى أعطافها ، ولوجدنهم بوجد الظبية على خشفها قد صرعت نبال
الصائد ، أو مزقه برائن السبع الضاري ، يصفون مصرع طفلها
وافقادها إياه وجزعها وتلددها لهلا ، في أبيات كثيرة يبدأونها
بقولهم : « وما ظنية ... » أو نحو ذلك ، ويعقبون عليها بقولهم :
« بأرجع مني يوم بانوا ... » أو ما إليه ؛ كما كان من التقاليد المتبعة
في أشعار النسيب والوجد مناجاة الخاتم وسؤالها عما يشجها ، ومقابلة
شجوها بشجور الشاعر ، ووصف تهيجه لذكرياته وتجديدها لآلامه
ومن محاسن ما قيل في الخاتم قول أعرابي :

وقلي أبكي كل من كان ذا هوى هتوف البواكي والديار البلاقع
ومن على الاطلاع من كل جانب نوائح ماتخضل منها المدامع
مزرجة الاعناق غر ظهورها محطمة بالدر خضر روائح
تري طرراً بين الخوافي كأنها حواشي برد زيتها الوشائع
ومن قطع الباقوت صيغت عيونها خواضب بالحناء منها الأصابع
أما أشد شعراء العربية شغلاً بأمر الأحياء وتأملات في أحوالها
وذكرها لها في شعره فهو المعري الذي بلغ من نفاذ البصر في شؤون
الحيوان وشدة الرحمة له حياً ، والانكار للأوم طباعه حياً ، وطول
التأمل فيها تأملاً موضوعياً لا ذاتياً ، ما لم يبلغه غيره من شعراء العربية

فهو تارة ينسج على الضرعام مغادرته غابه لينازع ظي رمل في كناس ،
وتارة يسمح للذئب بالشاة علماً بما بالذئب من دام السغب ، وتارة
يكي للحمامة البريئة يعاجلها الصقر عن نقرها وهديلها ، وطوراً يرميها
بمائلة غيرها من الحيوان في الجور والعدوان ، وهو ينهى عن جفيرة
النحل في شهدها أو الناقة في فضيلها في حائته الرصينة من لومها لا يلزم
لا يكاد يوجد في الأدب الانجليزي شيء من ذكر تلك الأنواع
من الحيوان سائلة الذكر ، التي احتق بها أدباء العربية أي احتقاه ،
وحفل بذكرها الشعر العربي في شتى عصوره ، فلا الجمل ولا الحصان
ولا الأمد والذئب ، ولا الخاتم والظباء ، مثل ذلك المكان الظاهر
من موضوعات الأدب وتشبيهاته وكنائياته وأمثاله ؛ وذلك لاختلاف
البيئة الإقليمية والاجتماعية ، ذلك ضروب من الحيوان لا تكثر في
انجلترا كثرتها في بلاد العرب ، بل لا يوجد بعضها أصلاً ، والانجليزي
كانوا جوارى بحار لارحالي صحار ، ومقاتلة على الماء أكثر منهم على
البر ، فلا غرو ألا يبروا بتلك الأنواع إلا عرضاً ، وأن يمتلئ أدهم
بوصف ضروب أخرى من الأحياء غير هذه

إنما يحفل الأدب الانجليزي بذكر الطيور الجميلة المفردة ، ووصفها
ومناجاتها ، ووصف أغاريدها والاسترسال معها إلى آماد الخيال البعيدة
والطيران معها على أجنحة الشعر ؛ فالأدب الانجليزي غني بالشعر
الطبيعي الذي قصد به الوصف الطبيعي وحده ، وهذا الوصف حافل
بوصف الأطياف ، والأدب الانجليزي غني أيضاً بالوصف الطبيعي لم
يقصد لذاته ، وإنما يتخلل شتى أغراض القول ؛ وهذا مملوء بذكر
الطائر أيضاً ، والشعر الانجليزي غني فوق ذلك بالقصائد التي كتبت
خاصة في مناجاة الطيور وعبادة أصواتها المطربة ، ولم يحفل الأدب
العربي من شيء من ذلك ، ومن محاسن ما فيه منه وصف الصائغ
للبيغاء ، وهو من غرر الشعر العربي ومنه يقول :

عدت من الأطياف ، واللسان يرهنى بأنها إنسان

تنظر من عيني بالقصين في النور والظلة بصاصين

تميس في حلها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء

يبد أن الشعر الانجليزي أغزر وأخف تلك الآثار . ولكل من
ورد زورث وكنيس وشلي وتيسون وسوينبرن قصائد في ذلك باللغة
غاية السمو العاطفي والكمال الفني ؛ ولم يكتب الشعراء بمناجاة أطياف
جزيرتهم الغريبة الكثيرة ، فلجأوا على عادتهم إلى الخرافة ، وتصور
كولردج طائراً عجيباً سماه الإلباتروبس جلب النين والبركة لأصحاب
الملاح القديم ، ثم جزاه هذا الأخير جزاء سمار فقتله ، فكان ذلك
سبب ضلاله وهلاك أصحابه

ومن غرر تلك الأشعار في الانجليزية قول ورد زورث : وأياها
القادم السعيد ، ها أنذا أسمعك فأطرب ، أسمعك طائراً أم صوتاً
محلقاً ؟ أنا أسمع هتافتك المرددة وأنا مضطجع على العشب ، ويخيل

إلى أنها تمر من ربوة إلى ربوة ، قرية بعيدة في آن واحد : ترسل
أغاريدك في الوادي المكسو بالأزهار وضياء الشمس ، فتثير في نفسي
رؤى بعيدة ، مرحباً بك يا رسول الربيع ! يا من كنت إليه أستمع
إذ أنا صبي بالمكتب . وطالما جعلني هتافك هذا أنلفت في كل ناحية
باحثاً في الشجيرات والأدراج والسماء ، وطالما ضربت في الغابات
والأعشاب في نشدائك ، وظللت أنت دائماً أملاً أو حياً يطول التشوق
إليه ولا يرى أبداً ، وما أزال أستطيع الاستماع إليك والانبطاح
في السهل مصيخاً إليك ، حتى أستعيد في مخيلتي ذلك العهد الذهبي ،

ولجون لوجان من شعراء القرن الماضي مقطوعة عذبة في مناجاة
الطائر عينه ، قد وقع فيها على بعض معاني ورد زورث وتعبيراته ،
وإن لم يقل عنه جملاً وابتكاراً ، قال : « مرحباً يا غريب الأراكة
الجميل ، يا رسول الربيع ، هاهي ذى السماء تعد لك مقعدك من الريف ،
ويردد الغاب صدى الترحيب بك ؛ إذا مارقت الأقحوان العشب
أيقنا أن سنسمع صوتك من جديد ، فهل لك نجم يهديك السبل
أو يوقت لك دورة العام ؛ أيها الزائر المطرب ، إلى موكك أرحب
بأوان الأزهار وأسمع الموسيقى العذبة التي ترددها الأطياف في حواشي
الحائل ؛ ويسمع صبي المكتب صوتك المنني بالربيع الجديد ، وهو
يطوف في الغاب يقطف آخر زهيرات الشتاء ، فيتوقف منصتاً ويقلده
تغريدك ؛ أيها الطائر المطرب : إن تخيلك يخضراء أبداً ، وسألك
أبداً صانية ، وليس في أغاريدك شجن ولا في عامك شتاء ، فياليتني
أستطيع الطيران فأخف موكك على جناح الجبور . لطوف طوفتنا
السوية حول الأرض ، رفيق ربيع مستمر ،

بأمثال هذه الأوصاف الطبيعية الشائقة ، والمناجاة الحارة الصادقة
يحفل الشعر الانجليزي ، ومثل هذا الولع بالطيور والشغف بمناجاتها
ورقت القصائد والمقطوعات على الترتيم بحبها غير شائع في الأدب
العربي ؛ فالشعر العربي أحفل بذكر الحيوان ولا سيما الضروب سائلة
الذكر ، والشعر الانجليزي قليل الاحتفال بها عظيم الحفاوة بالطير ؛
ولا غرو : فقد كان العرب رجال يجتمع مقبلين على أسبابه ووسائله ،
يحمدون الإبل التي هي قوام حياتهم والحيل التي هي عمادهم في معركة
الحياة ، ويتمدحون بالأس والشجاعة فيذكرون قتال الأسود وجندلة
الذئب ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم كبير الاهتمام إلى الطبيعة ، ولا
شديد عطف على أبنائها ، وأشعارهم في هذا الباب لا تتم عن حب
للحيوان أو شغف بحياته ؛ وكان حب الطبيعة والقيام بمجاهلها من أكبر
مميزات الأدب الانجليزي ، والطيور أكثر تمثيلاً لمجاهلها وحورها
من الأسود والذئب ، فكثرت في الأدب الانجليزي وصف الطيور كما
كثرت وصف الأزهار والآجام والأنهار ؛ وفي شغف الأدب الانجليزي
بهذه واحتفاء الأدب العربي بتلك رمز وبيان للصيغة الاجتماعية التي
ترين على الأدب العربي ، والنزعة الطبيعية التي تتجلى في الأدب الانجليزي

فقرى أبو السعود